د. عبد المالك مغشيش - جامعة خنشلة - الجزائر

المنهج النقدي عند "ابن رشيق المسيلي القيرواني" من خلال كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان

ملخص

إن المنهج النقدي في مجال الأدب هو الطريقة التي يتبعها الناقد في قراءة العمل الإبداعي قصد استكشاف دلالاته وبنياته الجمالية والشكلية. ويعتمد المنهج النقدي على التصور النظري والتحليل النصي التطبيقي، و تتعدد المناهج بتعدد جوانب النص (المبدع والنص و القارئ والمرجع والأسلوب والذوق...)

و سنحاول من خلال مقالنا الكشف عن منهج "ابن رشيق" في أنموذجه، و الذي ركز فيه على المبدع و نصه وقارئه؛ فقد جاءت أحكامه النقدية ودراساته التطبيقية تبعا لمفاهيمه وتصوراته وآرائه حول حياة الشاعر وثقافته وطرائقه في الإبداع ومدى تأثيرها في نفوس القراء.

الكلمات المفتاحية : ابن رشيق، النقد، النص، المبدع، القارئ، ...

Abstract

The cash method in literature is how the critic read creative work to explore the aesthetic and formal structures and connotations. Cash method depends on theoretical and applied script analysis, and multiple approaches to multiple aspects of the text (creator and text and reader and reference, style and flair).

And it is clear that the method of ' ibn rachik ' nephew in his model focused on creative reading and reader; cash and provisions were applied studies according to concepts and perceptions and opinions about the poet's life and his culture and methods of innovation and impact in the hearts of readers.

Keywords : *ibn rachik, critique, text, creator, reader*

مقدمة

يعد كتاب الأنموذج من أبرز كتب التراجم لشعراء المغرب، فهو يحوي نخبة من الشعراء المغاربة الذين عاصروا ابن رشيق، ومختاراتهم الشعرية في المدح والهجاء والعتاب والملح...وغيرها وقد بلغ عدد الشعراء المائة شاعر وشاعرة وهو ما يؤكده العديد من مؤرخي الأدب المغربي" أن عدد شعراء الأنموذج يصل المائة شاعر وشاعرة(01).

ينتسب شعراء الأنموذج إلى البلاد الإفريقية،" بالمنشأ أو الوفادة أو الإقامة أو الوفاة، من الثلث الأخير من القرن الرابع إلى العقد السادس من القرن الخامس على الأكثر"(02)، فقد ترجم وذكر أحوال حياتهم وإبداعاتهم، وكشف بإيجاز عن مذاهبهم واتجاهاتهم استنادا إلى الرواية وظروف المخالطة والمراسلة بينه وبين الشعراء. لكن ابن رشيق قد أهمل بعضا منهم والسبب يذكره محققا الكتاب بقولهما:«أمام هذا التساؤل لا يمكننا أن نغفل الإشارة إلى كتاب آخر لابن رشيق ربما تكون له صلة بترك بعض الشعراء لا يذكرون في "الأنموذج" وهو الكتاب الذي ذكرناه له بعنوان " شعراء الكتاب" والذي يصرح ابن رشيق بأنه سيذكرهم في كتاب خاص»(03) .

أما عن تاريخ تأليفه فهو مجهول، لكن الدارسين استنادا إلى ما جاء في بعض المصادر القديمة، رجحوا تأليفه في القرن الخامس الهجري لا قبله-، وفي العصر الحديث رجّح "حسن حسني عبد الوهاب" العام الخامس والعشرين بعد الأربعمائة كتاريخ لتأليفه ،وجعله "السنوسي" عام(422)هـ بينما يرجح "الشاذلي بويحي" عام(420هـ). و عموما فإن أغلب الدارسين والمؤرخين قديما وحديثا- قد رجحوا تأليفه في زمن العمدة أو بعده بقليل(04).

و الناظر في الأنموذج يلحظ بأن منهج "ابن رشيق" في وضع الشعراء طبقات جاء وفق جودة أشعارهم، والتصرف في أنواع الشعر، والإصابة في بناء القصيدة، وملائمة الشعر لمقتضى الحال، والإتيان بمعنى مخترع في لفظ بديع، و متى تم للشاعر مراعاة تلك المبادئ حكم له بالتقدم وحاز قصب السبق(05) ولهذا نأى عن المنهج التاريخي وانتهج الفني الجمالي.

وتتجلى قيمة الكتاب في تلك النصوص التي دونها ابن رشيق فأثبتها لأصحابها وزمانها التاريخي، فحفظها من الضياع، وجمعه للأدباء المقلين الذين أغفلتهم مصادر النقد والأدب والتاريخ وبالإشارة الموجزة لمناحي حياة الشعراء، يصور ابن رشيق فترة هامة من تاريخ إفريقية والمغرب، "فقد نقل إلينا تاريخ التعاملات الخارجية بين القيروان وصقلية ،باستجلاء الدور الذي لعبه "جعفر بن ثقة الله" أمير صقلية ووزيره "الباغاني" في استجلاب الشعراء والاهتمام بهم، والعلاقات التي جمعت القيروان والأندلس بإقامة الشعراء ببلاط أمراء

الأندلس أين نالوا الحظوة والرعاية. وصور النزاعات السياسية بين الصنهاجيين وأمراء زناته، و الصراعات العقائدية بين مذاهب السنّة والشيعة"(06) .

و أما عن قيمة الكتاب النقدية فتظهر في نقل و نقد النصوص الشعرية بالنظر إلى الجودة الفنية بوصفها المقياس العام في تمييز النصوص والحكم على صاحبه، دون أن يغفل ذوقه الفني وحسه الجمالي فتأتي أحكامه ذاتية انطباعية. فقد ركز على أحكامه النقدية من خلال ثلاثية: النص و المبدع و المتلقي، وسنحاول الوقوف عندها بتتبع ما أورده ابن رشيق من آراء نقدية.

1. المبدع

نظر ابن رشيق إلى مبدع النص الأدبي، من خلال أعماله الشعرية بعد أن أحصاها وتبيّن طرائقه في إنتاجها. حتى إذا اكتملت صورتها الكلية في ذهنه، وتمت آراؤه النهائية فيها انطلقت أحكامه على مبدعها باعتباره مصدر إنتاج النص.

ويقف الناقد بعمله هذا موقف المحايد الذي يصف مذاهب الشعراء معتمدا ذوقه المثقف ودراساته التطبيقية الموضوعية دون تعصب لأحدهم على حساب الآخر، حتى إذا فرغ من ذلك أتى بالنماذج الشعرية التي تؤكد أحكامه وتدعم آراءه؛ يقول عن عبد الله بن البغدادي: " ... وطريق عبد الله في الشعر خارجة عن طرقات أهل العصر تعاليا وتغاليا كأنه جاهلي المرمى ملوكي المنتمى قفري الأسلوب، يخاله السامع فحلا يهدر وأسدا يزأر. وله أمثال واستعارات على حدة من الكلام وفي جهة من البلاغة "(07) ويقول عن عبد الله بن محمد الأزدي المعروف بالعطار: "شاعر حاذق نقي اللفظ جدا لطيف الإشارات، مليح العبارات، على شعره ديباجة ورونق يمازجان النفس، ويملكان الحس. وفيه من ذلك قوة ظاهرة تأتي في أماكنها من المدح وصفات الجيوش. ولم أر عطارديا مثله لا ترى عينه شيئا إلا وصنعته يده"(08) ويصف "ابن مغيث" فيقول عنه:" كان شاعرا مطبوعا ، مرسل الكلام ، مليح الطريقة ، يقع على النكت ، ويصيب الأغراض ويقيم حرب الشعراء"(09).

من هذا النموذج وغيره، يتبين أن "لابن رشيق" نظرة نقدية خاصة جعلته يتميز بترجمة فريدة؛ يصبح الأديب فيها تابعا لما أبدعه من النصوص. أو بلغة أخرى، تكون ترجمة شخصية المبدع خاضعة أو مستقاة مما حققه من إنجازات إبداعية؛ فابن رشيق يتعامل مع مترجميه من الشعراء من زاوية نصية محضة، يكون فيها المبدع المنبع المنتج للنص أكثر منه شخصية أدبية مستقلة عما أبدعته. وقد تفوق بعمله هذا عمن سبقه من النقاد الذين خاضوا في ترجمة الشعراء، وعلى رأسهم "ابن قتيبة" الذي اعتمد في مصنفه "الشعر

والشعراء" منهجا معروفا غير الذي عرفناه عند ابن رشيق؛ حيث يأتي إلى شخصية المبدع ويعرف بها ثم يسرد ما أمكن له جمعه من أحداث ووقائع من حياته، و العوامل التي أسهمت في إنتاج النص، ومثال ذلك قوله عن المتلمس: "هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضبيعة، وأخواله بنو يشكر، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو الذي كان كتب له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله، وكان دفع كتابه إلى غلام بالحيرة ليقرأه،فقال له : أنت المتلمس؟ قال: نعم، قال: فالنجاء: فقد أمر بقتلك فنبذ الصحيفة في نهر الحيرة وقال:

ألقيتها بالثّنى من جنب كافر *** كذلك أفنى كلّ قطًّ مضلَّل

رضيتُ لها بالماءِ لما رأيتُها *** يجولُ بها التيّارُ في كلّ جدولِ(10)

نجد لابن رشيق، من هنا تميزا منفردا وإنجازات نقدية مستحدثة تختلف في جوهرها عما جاء به سابقوه من النقاد؛ فالناظر في كتابي "الأنموذج" و"الشعر والشعراء" يلحظ تقاربا ظاهريا في التعرض للشعراء والتعريف بإبداعاتهم الشعرية ، لكن الجوهر المنهجي يختلف في المصنفين؛ فقد نجد تقاربا في التعريف بالاسم الحقيقي للشاعر ونسبه ومكان تأدبه وأهم الوقائع المساهمة في تدفق إبداعه. لكن "ابن رشيق" يزيد عليه بعرض واف وسرد كامل لصفاته وخصاله النصية ومذاهبه التي تميزه عن غيره؛ يقول عن الفراسي: "عبد الرحمان بن محمد الفراسي بالفاء وبعد الراء ألف وسين مهملة. من قرية تعرف ببني فراس جوار تونس وإليها ينسب إلا أن مستقره تونس و بها تأدبه. كان شاعرا خليعا ماجنا شريرا كثير المهاجاة، قليل المداراة، خبيث اللسان، من تلاميذ الصرائري. صحبه وجاراه ... لما ولي القاضي عبد الرحمان بن محمد النحوي قضاء تونس كتب الفراسي في "الجبل المعشوق" حيث يتنزه الناس ويتفرجون:

يقول فراسي هذا الزمان *** وما زال في قوله يعدل

متى يملك الأرض دجالها *** فقد صار قاضينا أحول(11)

ويقول عن الزواق: "عبد الواحد بن فتوح الزواق الكتامي، وبعض الناس يقول فيه المنبز: وهو كتامي نشأ بتونس وبها تأدب. وهو شاعر مفلق قوي أساس الشعر وأركانه وثيق دعائمه وبنيانه كأنه أعرابي بدوي يركب ظهر الشعر، ويخوض بحر الفكر يتكلف بعض التكلف، وفي قصائده طول عريان الظاهر من حلية الأدب لغفلة في طبعه وثقل في سمعه"(12).

وإلى جانب ذلك، نجد له التفاتة جيدة لأثر بيئة الشاعر وظروف حياته الثقافية في إبداع الشعر؛ فترجمته لبعض الشعراء وعرضه لنماذجهم الشعرية تؤكد أن للتكوين المعرفي والمحيط الثقافي الذي يعيشه الشاعر دورا فعالا في تنمية ملكته الشعرية، وقد يؤدي به الأمر

إلى التأثر بالفئة الثقافية التي عايشها وجالسها وتلقن منها العلم والأدب يقول عن ابن الخازن: "موطنه زويلة، رملة المهدية. له شعر جيد وطيء الأكناف سهل المخارج تقدم في علم الغريب وطلبه وعلو سماعه. لقي شيوخا جلة من العلماء ببلدنا وغيره من ناحية المشرق في أيام حجه ... وطريقته في الشعر طريقة العلماء يستعمل ما عليه الناس ولا يكاد يبدع طلبا للحقائق، وإتباعا للمناهج "(13) وكذلك الدارمي المسيلي الذي يقول عنه: " ... خالطني سنة ثمان وأربعمائة وليس قبله كبير معرفة فكنت أناوله المعاني وأفتح له أبواب الكلام إلى أن دخل الجملة وأنشد في المحافل، ومدح الأشراف ثم لم يزل حتى نابش الشعراء وتصرف كيف شاء في القطع والقصائد"(14).

هذا الاهتمام ببيئة الناقد الثقافية ضرب من المنهج التاريخي الذي يستند فيه الناقد إلى مسببات العمل الأدبي من "تجربة المؤلف الداخلية والخارجية، وصلته بالعالم الذي عيش فيه، والذي ينبسط حوله، والذي يمتد في الماضي، وكذلك في تكوينه الداخلي الخاص، وقدراته المتطورة كإنسان وفنان"(15). وتلك طريقة تعمل كمفتاح يستخدمه الناقد كتمهيد يلج بعده إلى العمل الأدبي. فالنقد الأدبي، ليس فقط: "تمييز الآثار الأدبية وتقديرها، وبيان ما يداخلها من قوة أو ضعف، ومن جمال أو قبح ..."(16) ولكنه تعرف على "العوامل المختلفة التي تعمل فيها، والدوافع التي تدفع بها، وتوجهها هذه الوجهة أو غيرها، وتصبغها بهذه الصبغة أو بتلك"(17)

من هنا جاء اهتمام "ابن رشيق" بالمبدع كوسيلة منهجية تعبد له طريق فهم العمل الأدبي وفك شفراته الجمالية والتعرف على جودته أو قبحه، أصالته أو زيفه، لذا جاءت خطته المنهجية في التعرف على حياة الشاعر والظروف الثقافية التي أسهمت في تدفق إبداعه ثم عرض نماذجه الشعرية التي ستنال منه الدراسة والتمحيص، وكأنه اطلع على رأي برونوتييه (Breunetié) الذي "يعتبر أن النقد هو، قبل كل شيء، الحكم على مؤلف، والحكم عليه بقدر ما يعبر عن جوهر هو الجوهر "الأدبي"(18)

ولم يقف اهتمام ابن رشيق بمبدع النص عند هذا الحد، بل إنه تعرض لطبقات الشعراء والمفاضلة بينهم، باتخاذ الجودة وحدها مقياسا حقيقيا لتمييز شاعر عن آخر. لذا وجدته يعاتب طريقة الحصري في ترتيب الشعراء -على السن-، فيقول: "وكان قد أخذ في عمل "طبقات الشعراء" على رتب الأسنان وكنا أصغر القوم سنا فصنعت:

رفقا أبا إسحاق بالعالم *** حصلت في أضيق من خاتم

لو كان فضل السبق مندوحة *** فضل إبليس على آدم

فلما بلغه البيتان، أمسك عنه، واعتذر منه، ومات وقد سد عليه باب الفكرة ولم يصنع شيئا.(19)

ويؤكد "ابن رشيق" في موضع آخر من الكتاب أن تفضيل شاعر على آخر لا يجري على السن وإنما على الجودة والحسن فيقول :"وحدثني بعض الكتاب أنه بينما كتّاب الخراج في الديوان يوما يتذاكرون الشعر والبديهة و"عبد الكريم النهشلي" حاضر إذ دبت دباة فأراد بعضهم امتحان بعض بوصفها فقال عبد الكريم : أما أنا فرجل فكري مقصد ؛ فبدر يعلى بن إبراهيم بن عبد الخالق . وكان أصغرهم سنا . فجعلها بين إصبعيه واستمد من ساعته وكتب:

وخيفانة صفراء مسودة القرا*** أتتك بلون أسود فوق أصفر

وأجنحة قد ألحفتها كردنة *** تقاصر عن أثناء برد محبر

فاندهش جميع من حضر . وكان له الظفر"(20) أي أنه قد ظفر بالتفوق وبالتجويد في القول رفعه عمن كان حاضرا من الشعراء وهو الأصغر سنا.

فالجودة . عنده . هي المعيار الأساسي في التفضيل بين الشعراء ، وترتيب طبقاتهم ، وتحصيل السبق والتفوق لبعضهم دون الآخر . يقول عن "الوراق التميمي":" كنت أرى أن قول الشاعر :

لا عمل المبرد في وجهه *** لكنه يعمل في المبرد

وقولي لبعض أهل الوقاحة وكان لقبه "الكرش" لجدري كان به:

حديد وجه صاحبنا *** وهم يدعونه كرشا

ولولا آلة معه *** هي الجدري ما نقشا

قد فاتا كل سابق، وأعجزا كل لاحق، فإذا هو قد أخذ علينا المطالع وسد الفجاج. ولم أر لأهل عصرنا أظرف من قوله:

ابن "أندريه" علج *** نتاج أم كريمه

ذو لحية ذات عرض *** طويلة مستقيمه

كأنها بند جيش *** منكس في هزيمه(21)

وإضافة إلى كل ما سبق، نجد التفاتة طيبة لعلاقة النص الأدبي ومكوناته الجمالية والفنية بنفسية مبدعه، وهي خطوة جريئة، كان لابن رشيق بها فضل السبق والتميز؛ باعتبارها قضية حديثة قل بل ندر من اهتم بها من القدماء(22). وتجسدت في تعليقه على أبيات "أبي طالب الدلائي"، والتي يقول فيها :

أودعته بطن الثرى وتركته *** في رمسه والموت مالا ينكر

قدمته ولو أنني أنصفته *** ما كنت عنه ساعة أتأخر(23)

فيشرح ما تكنه الألفاظ ذات التركيبة المجازية الجميلة والمؤثرة من مشاعر وأحاسيس صاحبها ويقول: "فهذه أنفاس مشتعلة عن نفس مشتعلة قد دلت على ما في الصدر دلالة الشواظ على الجمر"(24)

2. النص

اختلفت نظرت "ابن رشيق" للنص باختلاف الرؤية النقدية التي تعتمد الذوق الفني من جهة والدراسة التحليلية التمحيصية للمكونات النصية من جهة أخرى. لذا تشكل لديه منهجين نصيين متكاملين؛ الأول ذوقيا انطباعيا، والثاني موضوعيا علميا. وجاءت أحكامه الجمالية وتأملاته النقدية وفقا لما تمليه مقاييس الذوق، أو ما تقتضيه الدراسة النصية المتأنية.

النقد الذوقي الانطباعي

لقد اعتمد "ابن رشيق" ذوقا مثقفا مدربا ينم عن طول دربة ومعايشة للنصوص الأدبية؛ لأن أحكامه على النتاج الأدبي بالجودة أو القبح، ووصفه بالطبع أو الصنعة أو التكلف، أو بالرقة والخشونة... وغيرها من الأوصاف والآراء النقدية، صادرة عن ذوق إنسان شغل بالأعمال الإبداعية جيدها و رديئها ودأب على ممارستها حتى تمكن له تمييزها وتحسس جمالها. يقول عن ابن جابر الخزاعي: "كان شاعرا مطبوعا جيد الطبع علي الأنفاس لا يبالي كيف صنع الشعر ثقة بنفسه وعلما بالمقاصد مع قوة وحلاوة"(25) ويقول عن الوراق التميمي: "شاعر مطبوع، يكره عويص الكلام ويتجنبه، و ينحو نحو "الصنوبري" ويذهب مذهبه غير أن بينهما بونا شاسعا في ركوب القوافي الشرد أحيانا. ولا تكاد تخلو له قصيدة من بديع يتقدم به أصحابه"(26). فاكتشافه تقارب المذهبين وتمييزه العلة النصية في اختلاف الشاعرين لدليل واضح على معرفته النصوص الشعرية ومعاشرته لها ودأبه على مقارنتها ببعضها وتمييز مستوياتها.

وكذلك الحال في قوله عن"ابن البقال الضرير": "وكان شاعرا مطبوعا يلقي الكلام إلقاء، ويسلك طريق أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب، وقرب المآخذ"(27). فاستنتاجاته التي نمت عن تقارب الشاعرين في المذهب الشعري والتقائهما في بعض الخصال النصية يؤكد إمعانه في النصين وإدراكه لطريقة كل شاعر ، أوجدته الدربة والممارسة الطويلة، وأنضجه التعود والتعاشر.

وقد قال أيضا عن النمدجاني: "كان شاعرا مشهرا بالمجانة سكيرا لا يكاد يرى صاحيا البتة، سلك طريق "أبي الرقعمق" في التهتك والتهكم و التحامق"(28). فلولا معرفته لشعر أبي

الرقعمق ودأبه على إبداعات النمدجاني، لما استطاع تمييز طرائقهما ومذاهبهما الشعرية، ثم اكتشاف تقاربهما فيها.

ولم تقل معرفته بشعر "الشريف الزيدي وكشاجم" عمن سبق ذكرهم من الشعراء فالأول كما يصفه: "شاعرا حسن الاهتداء قليل المدح والهجاء، ملوكي الشعر جيد التشبيه، صاحب ملح وفكاهات، أشبه الناس طريقة في الشعر بكجاشم".

هذا الذوق السليم قد فتق ذهنه على الجمال النصي، وأوقد حسه الفني، فعبر عما يختلج في نفسه تجاه إبداع دون آخر؛ فيصف هذا بأنه قمة الجمال أو فائق الجودة وآخر بروعة البلاغة. يصف ذاك بأنه غاية في القبح والرداءة، ولا مقياس له في ذلك إلا ذوقه العالم بخبايا الجمال والقبح النصي يقول عن ابن الخزاعي بعد أن يعرض له قوله :

لم ترم فوق ثلاث عشرة حجة *** حتى أبان عداك منك نوار

فحدا بمدحك جازع في مهمه *** وشدا به الحضار والسمار(29)

ما على هذا الكلام زيادة ولا فوقه إرادة، ولقد شب على المشيب نار التشبيب، وتبرأ في المدح من كل عيب وقدح"(30). فهذه الخصال الجمالية التي تمتع بها البيتان، أوقدت شجون الناقد تجاه فنيات النص، فجعلها قمة الإبداع في الموضوع الشعري لا تجاربها أخرى.

ولما كانت ذاتية الناقد وتحركات نفسه العامل الداخلي اللاشعوري الذي يتحكم في نظراته وتقديراته الذوقية للجمال الفني؛ فإنه لم ينأ عن الانقياد لها، والانصياع لحركاتها وسكناتها، باعتبارها الحكم العادل الذي نمته التجربة وأنضجته الدربة والممارسة وطول معاشرة الإبداعات الأدبية بمختلف مستوياتها. فكان التعويل على قدرات النفس الحسية وذاتية الناقد الذوقية طريقا صالحا لتمييز الجميل وفضح المعيب القبيح؛ يعلق على قصيدة "الخزاعي" التي يقول فيها:

وقالت : عهدتك ذا ثروة *** يقل الزمان لإكثارها

فقد جرني قدر نالني ** وفي حكمه من لظي نارها

فعفوا وإن عظمت زلة *** فما زلت أكرم غفارها

وإن قصدت مهجتي ما كرهت *** فلا بلغت نيل اوطارها(31)

فيذكر محاسنها مزاياها الفنية الحميدة ويقول: "هكذا تستعطف القلوب، وتدر الذنوب، وإن من هذا كلامه، لبعيد ملامه، بل هو أولى بالمثوبة من العقوبة، وبالاعتذار إليه من العتب عليه"(32). وما حكمه هذا إلا رد فعل شعوري حسي نتج عن احتكاك انفعالي ذاتي استلهم به الناقد جمال النص الأدبي، فدفعه ذوقه وحسه للتعبير عنه والتقاط الفنيات

النصية التي كانت سببا في تذوقه النص وانفعاله به؛ فقد جعل الاستعطاف أسلوبا للملامة والعتب فأعطى للنص نكهة جديدة تلين معها القلوب وعن أبيات القطان التي يقول فيها:

أهدى إلى الغصن الرطيب قواما *** وإلى فؤادي لوعة وغراما

ظبي أعار الظبي منه محاجرا *** وأعارني من سقمهن سقاما

ما ضره لو كان من كلفي به *** يهدي إلي مع الرياح سلاما(33).

يعلق شارحا حالته الحسية وذاتيته الشعورية التذوقية التي أحالته على ألفاظ ومعاني النص كمكونات جمالية أيقظت ذوقه فعبر عما أثار انفعاله فيقول: "وهذه ألفاظ طيبة ومعان رائقة"(34).

هذه النماذج وغيرها كثير من كتاب الأنموذج تؤكد أن الناقد خبير بالأعمال الفنية والإبداعات النصية، درب بها، معاشر لجيدها و رديئها؛ فتذوقه النص الأدبي وتأثره الذاتي الانفعالي لم يأت حالة عابرة أو لذة زائلة تعبر عن إعجاب أو نفور تجاه جمال أو قبح نصي، وإنما حدث عن تأمل وإمعان، بل عن تجربة طويلة ضمنت له سهولة ومرونة استقطاب ما أثار حسه وشجونه وذوقه الفني.

وحكم "ابن رشيق" الذوقي لم يقف عند النص الواحد، وإنما تعداه إلى إبداعات الشاعر جملة، فحكم عليه من خلالها، بعد أن تبين جودتها من رداءتها، وتحسس جمالياتها، واستنبط مصادرها النصية، إذ يقول عن "أبي إسماعيل الكاتب": "كان شاعرا كتابي الشعر لطيف الألفاظ نظيفها رشيق المعاني و جيزها، صافي مزاج الطبع على أسلوب واحد ..."(35)35 ويقول عن" العطار": "شاعر حاذق نقي اللفظ جدا لطيف الإشارات مليح العبارات، صحيح الاستعارات، على شعره ديباجة ورونق يمازجان النفس ويملكان الحس. وفيه مع ذلك قوة ظاهرة تأتي في أماكنها من المدح وصفات الجيوش" (35). ويقول عن "القفصي البزاز": "شاعر قوي الطبع، مهول، يقرع السمع ويحزن في أكثر كلامه ولا يسهل إلا قليلا مع قوة ظاهرة كأنه نجدي ..."(36).

هذا الحكم العام على الشاعر وأعماله الإبداعية، يؤكد إطلاعه على إبداعات الشاعر وإمعانه النظر فيها، وطول ممارسته لها وتدربه على جيدها و رديئها حتى عرف الجوهر المكنون والمزيف المعيب، فتربى ذوقه ونمت ملكة التمييز عنده، واستند تأثره بالنص الجمالي إلى معايير أوجدتها تجربته الطويلة وعلاقاته الحميمية بالنصوص على اختلاف مستوياتها.

وقد يجد الناقد لتأثره الجمالي مبررات نفسية أو نصية، وقد يترك للقارئ كمتقبل جمالي آخر للإطلاع على مسببات الانفعال وإيجاد مبررات الحكم فيتكون لديه نوعين من النقد الذوقي الحكمي، معللا وغير معلل.

النقد الذوقي المعلل

إن الذوق المثقف المدرب هو دليل الناقد إلى الموضوعية والعلمية في الحكم الجمالي على النص الأدبي، لأن تجربته الطويلة وممارساته المديدة لمستويات مختلفة من النصوص قد أتاحت له فرص التعرف على النص الأدبي والتأثر بجمالياته والنفور من عيوبه، ونمت لديه روحا ذاتية تقوده إلى ما يجذب النفس داخل النص وما يسبب إعجابها أو نفورها.

والملاحظ على أحكام ابن رشيق، ابتعاد بعضها عن العموميات، وتجاوزها الشكل الظاهري للنص الأدبي، وارتقائها إلى مستوى الولوج في جزئيات النص، فجاءت معللة، يذكر فيها الناقد أسباب انفعاله وعلل تأثره؛ ومثالها قوله معلقا على نص أبي حبيب:

خطت يد الحسن على خده *** لاما من المسك شديد السواد

حتى إذا جاء إلى نصفه *** وهم أن يزداد جف المداد

فحق لي فيه لباس الضنى *** وقل لي فيه لباس الحداد (37)

ذاكرا ما شد انتباهه إلى النص وما أثار إعجابه وانفعاله، فقال: "هذه إشارة طريفة ظريفة خفية خفيفة"(38). ثم يعلل حكمه مستقطبا المكونات النصية التي شكلت الإشارة وهزت ذاته ليصفها بخصال الجودة والحسن فيقول: "لما قال "جف المداد" دل على انقطاع الخط وخفاء منتهاه، فاستحق عند نفسه لذلك لبس الضنى مشاكلة. وقال "لباس الحداد" لما بينهما من مزية"(39). فالإشارة الخفيفة الرمزية التي يحمل لفظها الغامض معنى عميقا دالا، هي ما لمس شغاف قلب الناقد وأوقد انفعاله، وهي قوله "جف المداد". اكتملت بما حققه الشاعر من تشاكل لفظي حين أضاف عبارة "لباس الحداد" فازداد المعنى قوة وعمقا ودلالة. ويثني "ابن رشيق "على أبيات "ابن الربيب القاضي" التي يقول فيها

ولما التقى الجمعان واستمطر الأسى *** مدامع منا تمطر الموت والدما

لدى مأتم للبين غنى به الهوى *** بشجو وحن الشوق فيه فأرزما

تصدت فأشجت ثم صدت فأسلمت *** ضميرك للبلوى عقيلة أسلما(40)

ثم يذكر العلل والمسببات النصية التي أدت به إلى الحكم بالجودة والثناء بالحذق، فيقول: "كفى بهذا الشعر شاهدا بالحذق، لما فيه من القوة والاندفاع، وجزالة اللفظ، والمجانسة بين "تصدت" و"صدت" وبين "أسلمت" و"أسلم"(41). فجزالة اللفظ وقوته، وكذا رونقه وجماله الشكلي البديعي هي العوامل النصية التي أثرت في نفسية الناقد، فحكم على النص بالحذق والجودة، وهي المكونات الجمالية التي تشكل مقياس جودة النص العربي القديم الذي دأب الناقد حتما على قراءته وتبين مقاييس الجودة والرداءة من خلاله باعتباره لمثال المحتذى والقمة التي تقاس عليه درجات الكتابة.

وقد كانت سلامة القافية وجودتها و أطرادها، إحدى المقاييس التي يقيس عليها الناقد جودة النص الأدبي، وعلة من علل تقديمه وتقييمه، يقول عن "القفصي الكفيف": "وقوله وهو مما طاوعته فيه القافية العويصة:

لائمي في اللهو دعني فالذي *** قدر الله تعالى قد فرغ
لا تلمني إن سلطان الصبى *** والهوى أفسد قلبي ونزغ
إنما الدنيا دد فاشف به *** لدغة الحب إذا الحب لدغ

فهذا كلام لين الشكيمة، غالي القيمة، قد صحت أساليبه، واطردت أنابيبه"(42) فتناسق القافية و إطرادها على نظام واحد، جعلها سهلة لينة رغم صعوبتها فجودت النص وزادت من قيمته.

من هذه النماذج وغيرها، تتلخص لدينا بعض القيم الشكلية والمعنوية التي جعلها الناقد علل الجودة ومقر الحسن في النص الأدبي؛ فجزالة اللفظ وجماله ودلالة المعنى وعمقه ونظام القافية وجودتها، هي مقومات القصيدة العربية التي قال عنها في عمدته: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي: اللفظ، والوزن، والمعنى والقافية"(43)، فلا يقوم الشعر إلا بها، ولا تقاس جودة القصيدة إلا بالنظر في وزنها وقافيتها، وكذا لفظها ومعناها.

النقد الذوقي الغير المعلل

قد يعجب "ابن رشيق" بنص شعري معين، فيحكم عليه بالجودة، وقد ينفر من آخر فيصفه بالرداءة والقبح دون أن يذكر العلة النصية التي أدت به إلى هذا الحكم النقدي؛ ومثال ذلك تعليقه على قول العطار:

شكوت إليه جفوته *** ومن خاف الصدود شكا
فأجرى في العقيق الدر *** واستبقاه فامتسكا
فقلت مخاطبا نفسي *** أرق للوعتي فبكا
فقالت: ما بكت عينا *** ه لكن خده ضحكا

إذ يقول: هذا كلام قد سقط عنه التكلف، وظهر عليه التصرف. دون أن يعلل سبب هذا الموقف النقدي، ودون أن يذكر الجزئيات النصية التي ظهر فيها تصرف الشاعر وسقط عنها تكلفه. هذا فضلا عن بعض الأحكام العامة التي تنطق بجمال أو قبح الإبداع الشعري دون توجيه نصي لمسببات التأثر أو النفور. من ذلك قوله عن الرقيق: ومن مليح كلامه قوله من قصيدة:

إذا ارجحنت بما تحوي مآزرها *** وخف من فوقها خصر ومنتطق

ثنى الصبا غصنا قد غازلته صبا *** على كثيب له من ديمة لثق(45)

وقوله عن قصيدة للشاعر نفسه: "ومن أعجب ما سمعت له قوله أول نسيب قصيدة يمدح "محمد بن أبي العرب الكاتب":

أظالمة العينين لحظهما السحر *** وإن ظلم الخدان واهتضم الخصر

أعوذ ببرد من ثناياك قد ثنى *** إليك قلوبا حشو أثنائها جمر(46)

وقوله واصفا أبيات الفزاري:

يا من عذيري من شوقي وتسهيدي *** ومن معيني على نوحي وتعديدي

أم هل ليل أخي الأحزان من أمد *** فينقضي فيه تصويبي وتصعيدي

تطاول الليل وامتدت غواربه * * * فالصبح ورد لعيني غير مورود

لا أطعم الغمض إلا أن يمر به * * * طيف ويذهب مفقودا بمفقود(47)

هذا من حر الكلام و نفيسه. فهذه الانطباعات العامة غير المعللة قد سدت على القارئ طريق التعرف على الموجهات النصية التي كانت سببا في انفعاله وتأثره. وهكذا، يمضي "ابن رشيق" في أحكامه الذوقية الانطباعية غير المعللة، منقادا بذاتية منفعلة، وإحساس مرهف صادق، أغفله في أغلب الأحايين عن الموضوعية التي تحتم عليه ذكر العلل النفسية أو النصية التي دفعته إلى الحكم بالجمال أو القبح. وقد يكون لثقافة قارئ ذلك العصر الدور الفعال في اكتفاء الناقد بالإشارة إلى جودة أو رداءة الإبداع دون إسهاب في ذكر العلل.

3. القارئ

كان الاهتمام بمتلقي النص من أولى القضايا التي شغلت "ابن رشيق"؛ فإطراب النفوس وتحريك الطباع هي من مهمات الشعر الأساسية التي أثبتها في عمدته وقال عنها: "إنما الشعر ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع"(48). ذلك أن الإبداع وجد لإشباع رغبات القارئ ونفسيته التواقة للجمال النافرة من الرداءة والقبح.

ويصور "ابن رشيق" مدى اهتمام قراء النصوص الشعرية التي أثبتها في أنموذجه، ومدى تأثرهم وانفعالهم بالإنجازات الإبداعية وخاصة منهم طبقة الحكام والأمراء، ممن أجزلوا العطاء لأصحاب الإبداعات الأكثر وقعا على النفوس. يقول عن "التونسي": "وكان المنصور مفتونا بشعر التونسي لا يتمالك إذا سمعه. فعرض عليه يوما فرس أشهب خالص فأعجبه وكان بحضرته علي التونسي. فقال له ألك شيء في صفة هذا ؟ و أشار إليه. قال: نعم أبيات كنت صنعتها لك. وهي:

رغبت به الأم النجيبة عن *** رقط الغراب وهجنة البلق

فأتى كفجر الصيف باعده *** غلظ الهواء وكدرة الأفق

حتى اعتلت أنواره وجنت *** كف الغزالة وردة الشفق

فطرب أشد الطرب ودفع الفرس إليه"(49) ، ويصف ابن رشيق إعجابه وتأثره بطبع "مشرق السلمي"، فقال عن أبياته:

أحن إلى البدر كيما أراه *** وبدري قد غاب في سجفه

وليس عجيبا ولا منكرا *** حنين المشوق إلى إلفه

وهذا شعر سلس، غير شرس، عذب الظاهر، رطب المكاسر، سالم من التعسف والإكراه، يشرب شربا ويلصق بالقلوب حبا"(50).

وباعتباره قارئا متلقيا للنص الإبداعي، يحاول ابن رشيق جهده، كشف غوامض النص؛ لتمييز جيده من رديئه مستعينا بذوقه المثقف العارف بخبايا الإبداعات المطلع على مستوياتها الفنية، مستخدما ممارساته التفسيرية التحليلية المعالجة لمكونات النص، التي أثارت إحساسه واستفزت فكره وإمكاناته النقدية في كشف الخبايا وبيان الكوامن الإبداعية التي كانت كقارئ ضمني وجهت الناقد صوب القمم النصية.

هذا ما لاحظناه في استقصاءاته عن الغموض الجمالي الذي أحاط بألفاظ الشاعر "ابن الربيب القاضي" في نموذجه الشعري المعروض سابقا والذي يصف فيه "الجوزاء"؛ فالقمم النصية والموجهات الجمالية التي شكلتها ألفاظه: "شيحان"، "صحر"، "بقر"، "قوس"، "الناموس"، قد أيقظت حسه كمتلقي متأثر، واستفزت إمكاناته الإبداعية كقارئ متمكن مطلع على خبايا تلك الألفاظ وإمكاناتها الجمالية التي لم تفصح عنها؛ فراح يبحث في المسكوت عنه الذي يكشف عن معاني الألفاظ التي قصد إليها الشاعر وأرادها لصفة "الجوزاء" وكانت سببا في جمال النص ودلالة المعنى. يقول شارحا الدلالات اللفظية الجمالية المسكوت عنها: " ... تمكن له وصف الجوزاء بقوله: شيحان، وهو الطويل من الرجال، وقيل: الحذر المتحير... وقوله "حمر أو بقر" من أحسن شيء لبياض متونها. و"الصحرة" القريبة من البياض... ويجوز أيضا أن يكون جعل "الهنعة" قوسا وإن كانت من نجوم الجوزاء ... والناموس بيت الصائد"(51).

إن لغة الناقد القارئ هنا لغة تأويلية استقرائية، تنم عن ثقافة جيدة، وإطلاع واسع، وتمكن إبداعي في استنطاق المسكوت عنه، قاده إليه قارئ ضمني مثلته لغة النص الغامضة، وألفاظه الموحية.

الخاتمة

بدا الأنموذج عرضا لإبداعات شعراء مغاربة، عاصروا "ابن رشيق"، فكان له السبق في ترجمة أبرز شعراء عصره، والكشف عن مذاهبهم الشعرية، مدعما ذلك بتعليقات و شروحات جمالية وممارسات نقدية تحليلية استقصائية نصية.

وقد اعتمد "ابن رشيق" في منهجه على أن النص الأدبي هو المنطلق الأساسي الذي تبنى عليه الرؤى والمبادئ التنظيرية؛ فبدون النص ستبقى تلك المبادئ النظرية والقضايا العامة النقدية جافة جرداء لا جدوى من الإفتاء بها . من هنا يصبح النص الأدبي في الأنموذج مسرحا تطبيقيا يبوح بأسرار الجمال أو القبح لدى المبدع منتج النص، ويكشف عن أسباب التفاضل والسبق بين الشعراء، ويفصل بالحكم في أهم قضايا المنهج النقدي الذي اعتمد عليه النقاد القدامى. ويصبح الناقد المطبق المترجم الذي ينقل لغة النص إلى لغة القارئ الذي يعد الحلقة المهمة في استمرارية الإبداع الأدبي وقد مثله بطبقة الحكام والأمراء المتذوقين للشعر الذين يتنافسون في جلب الشعراء لاعتبارات فنية و أدبية وحتى سياسية.

الهوامش

1. أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، ص267.
2. نفسه، ص267.
3. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ،ص29.
4. نفسه،ج1 ،ص29.
5. نفسه،ج1، ص104.
6. ابن رشيق: العمدة ، ج1، ص36.
7. ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، مطبعة القومية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص204-205.
8. ابن رشيق:الأنموذج، ص198.
9. نفسه، ص404 .
10. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق و شرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف ،مصر،1966، ص179.
11. ابن رشيق :الأنموذج ،ص ص146-147.
12. نفسه، ص226 .
13. نفسه، ص ص81-82 .

14. نفسه، ص311.

15. إبراهيم حمادة: مقالات في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية طبع بمطابع دار المعارف، القاهرة، ص141.

16. محمد طه الحاجري: في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية، العصر الجاهلي، و القرن الأول الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت، 1982، ص05.

17. نفسه، ص05.

18. كارلوني و فيللو: تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعد يونس، منشورات دار مكتبة الحياة، المكتب العالمي للطباعة و النشر، والتوزيع بيروت-لبنان ص50.

19. ابن رشيق :الأنموذج، ص/ص48-49.

20. ابن رشيق :الأنموذج، ص/ص171-172.

21. نفسه، ص254.

22. نفسه، ص254.

23. نفسه، ص118.

24. ابن رشيق :الأنموذج، ص118.

25. نفسه، ص324.

26. نفسه، ص251.

27. نفسه، ص159.

28. ابن رشيق :الأنموذج، ص292.

29. نفسه، ص273.

30. نفسه، ص325.

31. ابن رشيق :الأنموذج، ص326.

32. نفسه، ص327.

33. نفسه، ص319.

34. نفسه .

35. نفسه .

36. ابن رشيق :الأنموذج، ص50.

37. نفسه، ص198.

38. ابن رشيق :الأنموذج، ص320.

39. نفسه، ص144.

40. نفسه .

41. نفسه، ص144.

42. ابن رشيق :الأنموذج، ص112.

43. نفسه، ص113.

44. نفسه، ص/ص 338-339.

45. ابن رشيق: العمدة، ج1، ص119.
46. ابن رشيق :الأنموذج، ص/ص201-202.
47. نفسه، ص58.
48. نفسه، ص59.
49. ابن رشيق: الأنموذج، ص411.
50. نفسه، ص304.
51. ابن رشيق: العمدة، ج1، ص128.

قائمة المصادر والمراجع

01. ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق: محمد العروسي المطوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، مطبعة القومية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
02. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، دت.
03. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، دار المعارف ،مصر، 1966.
04. إبراهيم حمادة: مقالات في النقد الأدبي، مكتبة الدراسات الأدبية، طبع بمطابع دار المعارف، القاهرة، دت.
05. أحمد يزن: النقد الأدبي في القيروان في العهد الصنهاجي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986.
06. كارلوني و فيللو: تطور النقد الأدبي في العصر الحديث، ترجمة جورج سعد يونس، منشورات دار مكتبة الحياة، المكتب العالمي للطباعة والنشر، والتوزيع بيروت-لبنان، دت.
07. محمد طه الحاجري: في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية، العصر الجاهلي، والقرن الأول الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1982.